تماثيل من أواخر العصور القديمة في متحف دمشق

بقلم يوهانيس كولوبفس

تعريب وتلخيص الدكتور كامل عياد

(خلاصة عن المقال المنشور باللغة الألمانية)

كانت أرض سوريا فقيرة جداً حتى الآن بما اكتشف فيها من آثار النحت التي ترجع الى الأدوار الأخيرة من العصور القديمة . والقطع القليلة التي عرفت حتى اليوم يمكن تعدادها بسرعة كالتمثال الصغير لأورفيوس مع الحيوانات في متحف بيروت [1] ثم زمرة التماثيل من معبد (ميترا) في صيدا (المحفوظة بين مجموعه « كليرك » في باريس) [2] وأخيراً تمثال الغلام (كورة) الذي يرجح أن يكون من أوائل عهد قسطنطين والذي عثر عليه في حفريات « سباستي » (محفوظ في متحف القدس) [3] .

إلا أن معرفتنا بالتماثيل الرأسية في سوريا لا تزال دون ذلك . فقد لاحظت في متحف بيروت تمثالاً لرأس امرأة من العصر الثالث كما ان متحف دمشق يملك تمثالاً ممتازاً لشاب على رأسه إكليل وعلى جبهته مجوهرة . وهو من تدمر ويرجع الى العصر نفسه (ربما كان « أذينة » ؟) [4] أما التماثيل الرأسية من القرنين الرابع والخامس فقد كانت حتى الآن

---

(١) توجد قطع أخرى من الزمرة نفسها في متحف العصور القديمة باستانبول (Mendel رقم ٦٥١) وبالمتحف البزنطي في أثينا (Sotiriou, guide du Musée Byzantin d'Athenes. No 93)

(٢) (A. de Ridder, Catalogue de la Eollection de Clercq, 1906; 20.20-28)
(E. Will, La date du Mithréum de Sidon, Syria 27, 1950, 261)

(٣) (R. W. Hamilton, guide to Samaria-Sebaste 1944, 28-12)

(٤) (Sélim Abdul-Hak et Andrée Abdul-Hak, Catalogue illustré du département des Antiquités greco-romaines au Musée de Damas 1951 , 73 no B.)

مفقودة بالمرة . ولعل هذا الأمر يبرر إقدامي على أن أتعرض فيما يلي الى البحث في راسين رغم أنهما لم يحفظا إلا في حالة سيئة جداً .

هذان الرأسان يرد ذكرهما في سجل متحف دمشق ولم يسبق أن نشر عنهما شيء . وفوق ذلك فان الرأس الأول منهما (رقم ٣٧٤١ ؛ الصورة ١ — ٢) يمثل أحد الأباطرة . وقد عثر عليه ، حسبما يشير السجل ، في (سفيرة) قرب حلب .

التمثال مصنوع من الحجر الكلسي وحجمه يزيد على المقياس الطبيعي إذ يبلغ ارتفاعه الأعظمي (٥٥) سانتيمتراً وعرضه الأعظمي (٤٦) وطول الرأس (٣١) وعرضه (٢٥) سانتيمتراً .

يقوم الرأس على عنق مكتنزة ، اسطوانية الشكل مع قليل من الميل . وهيئة الوجه بيضوية متطاولة . وأظهر صفاته المميزة : الجبهة الضيقة ونتوء عظام الوجنتين بصورة قوية ثم الذقن المنبسطة في استدارتها والممتلئة قليلا . أما العينان فلم يبق منهما سوى تقعر الحفرة الداخلية . وقد تهشم الأنف بالكلية وتمتد من طرفه الأيمن قسيمة الى زاوية الفم الذي لم يبق منه أيضاً الا حفرتا الزاويتين . ويفصل بين الذقن والعنق جدول ضيق . والشعر فوق الجبهة قد نظم في موجة أتقن تمشيطها . وبينما هو قد أرسل في الوسط على هيئة قوس نرى حدوده عند الصدغين تصعد عالية وموجهة الى الوراء . وهناك خط عميق يفصله عن الجبين مما يجعله يبدو كأنه « طاقية » موضوعة فوق الجبهة الضيقة . ثم انه قد قص عند الأذن بصورة مائلة . وتشاهد وراء الأذن بعض خصائل الشعر التي تركت مرسلة . وقد وضع على الشعر تاج منفرج يبدو في ضخامته الزائدة كأنه يكاد يسحقه . ان أجزاء التاج تكاد تكون محطمة تماماً . إنما يمكن الاستدلال من الثقوب الأربعة في الوسط على وجود مجوهرة ذات اربع زوايا فوق الجبهة بينما نلاحظ في الجهة اليسرى من الرأس حجراً شبه مدور بالمركز وأحجاراً بيضوية — متطاولة بالأطراف .

إن الرأس ليس منحوتاً في الخلف . فهناك خط ضيق وراء الأذنين نرى الحجر فيما يليه قد ترك سطحه المستدير مبسوطاً . وهو يبدو في الأسفل أعظم مما يتطلبه حجم العنق . وأقرب الاحتمال هو أن الرأس كان قائماً على تمثال ضخم . وهذا التمثال لا يمكن الا أن يكون مخصصاً لمحراب يستر الاقسام غير المنحوتة في الجانبين والخلف .

إن حالة الرأس سيئة جداً . والظاهر أنه ظل مدة طويلة في الفضاء فتآكل الأنف والشفتان وعظام الوجنتين وتحطم التاج حتى أصبح من الصعب تمييزه . وقد تهشمت ذؤابة الرأس وضاع معها قسم من التاج كما أن شقاً يخترق العنق .

والملامح المميزة لصاحب التمثال تكاد أن تكون قد طمست . إلا أننا نلاحظ على النصف الأيمن من الوجه آثار التكوين الدقيق الحساس مثل الجبهة الضيقة والضمور اللطيف في ناحية الصدغ ونتوء عظم الوجنة وانحدار الخد الذي ينبض بالحياة . ان كل ذلك يشير الى شخصية متحضرة ليست قوية الجسم كثيراً . ومن الصعب تحديد السن ولكن الأرجح ان يكون صاحب التمثال رجلا في مرحلة الكمال .

يكفي وجود التاج للدلالة على ان التمثال لأحد الأباطرة من أواخر العصور الرومانية . واذا بحثنا ، على سبيل المقارنة ، عن اشباهه لا بد ان تتبادر الى اذهاننا الرؤوس التي ترجع الى العهد (التيودوسياني) (١) . فاننا نجد هناك ايضاً الهيئة المتحضرة نفسها مع ما تتصف به من نعومة في ملامح الوجه وجمع الشعر على شكل « طاقية » (٢) والعناية الزائدة بتمشيط الشعر فوق الجبهة . ثم نلاحظ كذلك الارتخاء نفسه في الشعور الجسدي مع الجمود في وضع الرأس فوق العنق الغليظة (٣). على ان الصعوبة تبدأ عندما نحاول تحديد الزمن بالضبط . ان الرأس ، كما يبدو ، لم يبلغ بعد درجة « السطحية » الظاهرة في التماثيل من عهد (آركاديوس) . إلا انه يتمايز كذلك عن تمثال (فالنيتنيان الثاني) المحفوظ في استانبول والذي يتصف باكتناز اللحم في نواحي الخدين والذقن وتدل ملامح وجهه على الفراغ وفقدان التوتر النفسي . ومن جهة ثانية فان ما يبدو عليه من نعومة في تكوين الأعضاء وآثار الحضارة وحياة البلاط يجعلنا نعود به الى ما قبل العهد (الفالنتينياني) (٤) الذي تتصف فيه التماثيل بقوة البنية وجمع خصائل

---

(١) أنظر المراجع المذكورة في القسم الغربي عن المسلة (أوبوليسك) في استانبول وعن رؤوس (فالنتينيان الثاني) و (آركاديوس) و (هونوريوس) .

(٢) أنظر Kollwitz (اللوحة ٣٥—٣٦) و : G. Bruns (الصورة ٤٩—٤١)

(٣) إرجع الى رأس (فالنتينيان الثاني) .

(٤) أنظر : Delbrück (اللوحة ٧٨) و (اللوحة ٨١)

ثم : L. Orange (الصورة ١٩٠ — ١٩١)

الشعر فوق الجبهة واتجاه خطوط الوجه الى أسفل . وهكذا نرجح ان نرجعه الى ما بين سنة (٣٧٠) وسنة (٣٨٠) .

اما فيما يتعلق بتسمية الشخص فتعرض علينا الاحتمالات التالية : ان (فالنتينيان الأول) و (فالنس) لا بد من استبعادهما بعد الذي سبق ذكره . وعدا ذلك فان تماثيلهما المعروفة وأوصافهما لدى (آميان) [١] لا تتفق مع التمثال الذي نريد معرفته . فكلاهما أعرض وجهاً كما انهما تنقصهما ظرافة البلاط البارزة في تمثالنا . أما (غراسيان) فان رأسه الموجود في (تريير) [٢] له لحية ، وهذا وحده يكفي لاستبعاده . كذلك يبدو ان رأسه اقصر وأقل استدارة وبالدرجة الأولى فان جبهته اعرض . بقي هناك (تيودوسيوس الأول) . ان تمثاله في (ميسوريوم) بمدريد [٣] ، الذي تساعدنا الوثائق كذلك على إكماله ، ينم عن « وجه ناعم ، بيضوي — متطاول مع حاجبين مقوسين وعينين ناعستين وأنف طويل ، رقيق ، لطيف القنا وذقن يسترعي النظر بتأخر نموه . وبالاجمال فقد كان رجلا ليس قوي البنية ، وهو ذو أعصاب شديدة التأثر ، لطيف ، وقور . » [٤] هذا الوصف يمكن ان ينطبق كل الانطباق على تمثالنا . وإنما ناحية الذقن تثير بعض الصعوبات . فهي ، كما يظهر في تمثال (ميسوريوم) ، أقرب إلى الضيق وإن لم تكن حقاً « متأخرة النمو » . ولكن ألا ينبغي التساؤل عن مدى التقيد الذي يجوز ان يفرضه علينا تمثال (ميسوريوم) ؟ فهو إنما يحاول تصوير (تيودوسيوس) على وجه الاجمال . ومن المؤسف ان رأساً آخر لهذا الامبراطور يقوم على قاعدة المسلة (أوبوليسك) في استانبول قد تحطمت أكثر أجزائه وبالأخص ناحية الذقن . وعلى كل حال يبدو ان هذه اعرض من التي في (ميسوريوم) . ان الشبه بين الرأسين ظاهر لا يمكن انكاره ، كما ان التاج العريض جداً يشاهد في التمثالين . وهكذا فان دلائل كثيرة ترجح تسمية (تيودوسيوس الأول) ولكن اليقين النهائي لن يمكن الوصول اليه بالنظر الى حالة التمثال السيئة .

---

(١) أنظر : Amm. Marc. 30 , 9 , 6 - 31 , 14 , 7 ثم : Delbrück. (28)

(٢) أنظر : Delbrück, (90)

(٣) أنظر : Delbrück , (94 - 98)

(٤) أنظر : Delbrück , (29)

يشتمل السجل نفسه على رأس ثان يستدعي أيضاً الاهتمام بهذه المناسبة (الرقم ١٠٧٤٨ الصورة ٣ – ٤) وهو من مستودع متحف اللاذقية . وليس معروفاً المكان الذي اكتشف فيه . ولعل ذلك كان في اللاذقية نفسها او ضواحيها القريبة . يبلغ ارتفاع التمثال (٢٨) سانتيمتراً [طول الوجه (٢٠)] وعرضه (٢٢) سانتيمتراً .

هذا الرأس ايضاً في حالة سيئة مثل رأس الامبراطور . فهو مهشم من جميع النواحي تقريباً . وقد تحطم الأنف وتآكلت الشفتان كما انكسرت قطعة من قفا الرأس . وهناك شق في العنق .

يقوم على عنق قصير ، غليظ رأس مكتنز مع جمجمة عريضة ووجه قصير ، منبسط . إن إكليلاً مع خصائل الشعر الصغيرة يحيط بالجبين في شكل شبه منحرف . وتؤلف هذه الخصائل عند الصدغين كتلة كثيفة وهي بذلك تزيد فيما يتصف به الرأس من مظاهر الاكتناز وبينما نرى ظلال الأسارير العميقة تحدد سطح الجبهة فان خطاً رفيعاً قد حفر فوق الجبين للدلالة على حدود الشعر . ان العينين ضيقتان وهناك جدول محفور يفصل بين الجفن الأعلى والمقلة ، بينما يحيط جدول آخر بالعين من اعلى . ويصعد فوق العين خط الحاجب الرفيع على شكل قوس عال ، منفرج . وقد كان الأنف عريضا وقصيراً والمنخران محفورين . وتنحدر من الطرفين قسمتان مائلتان الى اسفل . والفم ضيق ومنبسط القوس . ويتفرع كذلك من زاويته قسمتان قصيرتان . ويغطي الخدين شعر خفيف يؤلف في الأسفل لحية مخروطية قصيرة . وقد أشير الى حدود اللحية ازاء العنق والأذنين بخط محفور . وفوق ذؤابة الرأس تمتد خصائل متجعدة حتى نهاية منبت الشعر في القفا .

يبدو ان هذا الرأس ، مثل الكثير غيره من التماثيل الخاصة في ذلك العهد ، يصور موظفاً كبيراً : وأقرب الاحتمال أنه كان يقوم على تمثال كامل .

أما من الناحية الشكلية فان هذا الرأس يرجع زمنه الى ما قبل التماثيل التي ذكرناها على سبيل المقارنة . ذلك لأن الهيئة العريضة للوجه غير الجميل مع الأنف العريض والفم المتدلي في استهزاء وخبث — لا يمت كل ذلك بصلة الى مظاهر الحضارة والتهذيب في التماثيل

---

(١) أنظر المراجع المختلفة المذكورة في القسم الغربي .

(التيودوسيانية)[١] . أضف الى ذلك ان الرأس على غاية من « السطحية » غير المعتادة في آثار العهد (التيودوسياني) . ولا نجد نظائر له الا في تماثيل منتصف القرن . ويمكن ان نذكر مثلا راساً من (إيفيزوس) محفوظ في (فينا)[١] او آخر في (أثينة)[٢] . فاننا نرى فيهما ذات الأشكال القريبة الى الخشونة والغلاظة مثل الوجه العريض مع الأنف الأفطح والفم العادي وأخيراً « سطحية » الوجه مع خصائل الشعر الجانبية التي تقاطع استدارة الجبين عند الصدغين . والشبه مع التمثال الأثيني ظاهر على الأخص في التفاصيل الجزئية . ويمكن الاشارة في سبيل المقارنة ، الى تحديد الجبين بشكل شبه منحرف والى العينين الضيقتين مع الجفن الأعلى المحفور دون قيد والى الحاجبين المرفوعين عالياً والى الأنف العريض وشق الفم الرفيع مع قسماته المتدلية .

وهكذا نستطيع ان نحدد الزمن في منتصف القرن الرابع او بعد ذلك بقليل .

---

(١) أنظر : Rodenwaldt (الصورة ١٠ — ١١)
ثم : L'Orange (الصورة ٢١٩ — ٢٢٠)
(٢) أنظر : L'Orange (الصورة ٢٣٦) .